

دور المكتبات في إغناء الثقافة العربية الإسلامية: "بيت الحكمة نموذجاً"

الأستاذ الدكتور عبد المجيد مهنا

قسم المكتبات والمعلومات

جامعة دمشق

دور المكتبات في إغناء الثقافة العربية الإسلامية: "بيت الحكمة نموذجاً"

الأستاذ الدكتور عبد المجيد مهنا

قسم المكتبات والمعلومات

جامعة دمشق

تاريخ المكتبات في الإسلام، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ العربي الإسلامي، فالمعروف إن العرب قبل الإسلام عاشوا في الجزيرة العربية أحقاباً طويلة وهم في عزلة عن العالم باستثناء اتصالاتهم المحدودة مع الروم والفرس والأحباش عن طريق التجارة، وبشكل عام كانت حياتهم بدوية متقلبة، أما علومهم فكانت تتناسب ومتطلبات حياتهم. ولم يهتم العرب قبل الإسلام بالتدوين، فقد اعتمدوا على الذاكرة في حفظ ونقل إنتاجهم الفكري، وبالتالي لم يكن عند العرب قبل الإسلام سجلات مكتوبة، بحيث لا يمكن الحديث عن شيء اسمه "مكتبة" ويمكن إن يعزى ذلك إلى الأمية وعدم توافر مواد للكتابة. بالرغم من ذلك فإن قسماً منهم عرف الكتابة وكتب على عظام الحيوانات وسعف النخيل والحجارة إلا أنه لم يصلنا شيء من ذلك.

لقد كان القرآن الكريم ولا يزال فتحاً عظيماً وجديداً في تاريخ المعرفة الإنسانية، فهو رفع العلم والعلماء إلى أسمى منزلة، فقد أقسم الله تعالى في محكم آياته بالكتاب والقلم وما يسطرون^(١)، كما حضن القرآن على القراءة والتعلم في أول سورة نزلت على رسول الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ (ومن هنا فليس بغريب أن توصف الحضارة العربية الإسلامية بأنها حضارة كتب ومكتبات)

واهتم الخلفاء بتأسيس المكتبات وجمعوا فيها الكتب العربية والمترجمة عن اليونانية والفارسية، كما أنشؤوا المكتبات في المدارس والمساجد، فقال تعالى: " هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون " صدق الله العظيم (الزمر، ٩)^(١). وقد زاد من هذه النهضة العلمية والثقافية استخدام الورق في الكتابة، وأعطوا الحبر ألواناً مختلفة وزخرفوا وجوه الكتب وذهبوها. ونشطت حركة التدوين والتأليف نشاطاً لم يعهده التاريخ إلا في العصر الحاضر. ونظراً لاهتمام المسلمين بالقرآن الكريم وتدوينه وضعوا النقط والشكل للحروف منعاً للحن في القرآن ووضعوا قواعد اللغة، فقد قام أبو الأسود الدؤلي بتنقيط المصحف الكريم منعاً لالتباس الحروف ببعضها، ثم جاء نصر بن عاصم الليثي ونقط الحروف فجعل للباء نقطة والتاء نقطتين وللجيم نقطة في بطنها ثم وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي الشكل فوضع الضمة والفتحة والكسرة والتنوين وحل أشكال النطق^(٢)، وإذا كان المصحف الشريف هو أول كتاب ظهر في لغة العرب، فقد بدأت حركة التأليف منذ منتصف القرن الأول الهجري، وشهد القرن الثاني ظهور الكتب ونشطت حركة تدوين التراث والتاريخ، متأثرة في تلك بطريقة كتابة الحديث، وفي القرنين الهجري الثالث والرابع رأينا ازدهاراً لحركة التأليف والتدوين خصوصاً بعد إقامة صناعة الورق في بغداد. وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه النهضة العلمية إلى جمع الكتب والمؤلفات وتكوين المكتبات الخاصة ونشأت مكتبات الخلفاء وكبار رجال الدولة ثم ما لبثت أن تحولت إلى مكتبات عامة. ولقد أوصى بها أصحابها أن تحفظ في المساجد والمدارس، وكذلك فإن أساتذة معاهد العلم أهدوا مؤلفاتهم ومكتباتهم الخاصة إلى معاهدهم التي كانوا يدرسون فيها. ونظراً لحب المسلمين الأوائل للكتب وشغفهم الشديد بالقراءة والعلم، وكنيجة لاتصالهم بالثقافات الأجنبية التي وجدوها في البلاد التي فتحوها، انتشرت عندهم أنواع عدة من دور الكتب والمكتبات^(٣).

المكتبات العربية الإسلامية:

إن تاريخ المكتبات الإسلامية جزء لا يتجزأ من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية والفكر الإسلامي : ارتقت بارتفاعه وساعدت على ازدهاره ونضجت معه وانحطت بانحطاطه . إن الإسلام العظيم دعا إلى المعرفة وإلى التعلم وإلى إنارة العقول بالقراءة والكتابة، وإن أول ما أوحى به الله سبحانه وتعالى إلى عبده ورسوله ﷺ قوله تعالى: "اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم" (العلق، ١-٥) ^(١)

يعدّ تاريخ الكتب والمكتبات عند المسلمين مهماً جداً وذلك لمتابعة التطور المعرفي عند الإنسانية جمعاء، لم تتفوق على المسلمين أمة من الأمم في حبهم للكتب والعناية بالمكتبات والمعرفة عامة . فالمكتبات من أهم وسائل نشر المعرفة على مدى العصور وقد انتشرت في عصر الإسلام انتشاراً واسعاً، وهي ثمرة من ثمار الحضارة العربية الإسلامية لأنها تعكس تاريخ هذه الحضارة التي كانت هي نفسها إحدى ثمارها وأن الأطوار التي مرت بها هي أطوار الحضارة الإسلامية بشكل عام. هذا ويعدّ العصر العباسي عصر الإبداع في الحضارة الإسلامية ففيه نضجت الحضارة الإسلامية وأينعت وآتت أكلها وزخرت البلاد الإسلامية بالعلم والعلماء والمعاهد والمدارس. وكان للمكتبات من ذلك نصيب موفور إذ تبارى الخلفاء والأمراء والأفراد والوزراء والحكام في العناية بالمكتبات وتزويدها بكل مستلزماتها. ^(٢)

المكتبات في العصر الأموي:

بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية قل الاعتماد على الذاكرة وأصبح الاعتماد على الكلمة المكتوبة، كما أن المسلمين بدؤوا بالاحتكاك بالأمم الأخرى وحضارتها، وبدأت عملية التمازج بينها فكانت مرحلة التدوين والنقل والتأليف. وكانت الكتابة تتم في العصر الأموي على القراطيس المصنوعة في مصر من لحاء البردي، وجاء اختراع

الورق أو الكاغد عاملاً حاسماً في نشر المعرفة وازدهار المؤلفات وبدا عهد ازدهار الكتب والمكتبات في الإسلام.

بدأت عملية النقل من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية في خلافة عمر بن عبد العزيز في دمشق خلال القرن الأول الهجري، وفي بغداد في القرن الثاني الهجري زمن الخلفاء العباسيين (المنصور والمأمون).

لعل أهم ناحية في التأليف في عصور الإسلام الأولى هو تسجيل الحوادث التي لها علاقة بالرسول الكريم وبالحديث الشريف وتمثل ذلك في الرغبة بضبط الحديث وروايته كونه المصدر الثاني من مصادر التشريع في الإسلام. إن أول من أمر بتدوين القصص والأخبار والتأريخ هو معاوية بن أبي سفيان، فعندما استلم الخلافة قال: أردت أن يكون عندنا من يحدثنا أخبار من سبقنا وهل يشبه ما نحن فيه اليوم. وأشاروا عليه برجل بحضرموت معمر اسمه آمد بن ابد الحضرمي، كما ورد عليه عبيد بن شريه من المعمرين باليمن وكان آية في معرفة تواريخ اليمن وملوك العرب والعجم فأمر معاوية كتابه أن يدونوا ما يتحدث به عبيد بن شريه في مجلسه، إن أول نقل أو تعريب في الإسلام كان في عاصمة الشام أيام خالد بن يزيد بن معاوية (حفيد الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان، وابن الخليفة الثاني يزيد بن معاوية. كان مهتماً بالعلوم وراعيًا للمشتغلين بها، وهو أول من اهتم من العرب بعلم الكيمياء وترجم فيه الكتب). لقد كان خالد بن يزيد ذي همة ومحبة للعلم، فقد أحضر جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا بمصر وأمرهم بترجمة الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي. وخالد هو أول من جمعت له الكتب وجعلها في خزائن الإسلام، وفي دمشق على الأرجح أنشئت أول دار للكتب في العالم الإسلامي. ودمشق أول عاصمة أنشئت فيها دار ترجمه فالشام أول سوق نفقت فيها بضاعة العلم والأدب، وخالد بن يزيد أول من عنى بعلوم الفلسفة وكان مقيماً في حلب سنة (٨٥) هجري ومن الأشخاص الذين ورد اسمهم كناقلين ومترجمين جبلة بن سالم.

وللشاميين منذ القدم ميل إلى النقل عن الأمم الأخرى هكذا فعلوا في كل قرن، فقد كان النقلة منهم في القرنين الأول والثاني وما تلاها وهم أقدر على تعلم اللغات. والمتتبع لأخبار النقل يجد أن معظمهم من السوريين سكان الشام والجزيرة والعراق، وللسوريين شأن كبير في نشر العلوم بين الأمم ونقلها من أمة إلى أخرى ومن لسان إلى آخر من أقدم أزمنة التاريخ. ونقل العلوم من لسان إلى آخر لا يتيسر ألا باستيعاب تلك العلوم وتفهمها، فضلاً عن إتقان اللغات اللازمة لذلك، ولهذا كان أكثر أولئك المترجمين أهل علم واطلاع واسعين فيما اشتغلوا بنقله وفيهم من ألف في فروع العلم المختلفة. أن أول نقل حدث في الإسلام كان بفضل خالد بن يزيد بن معاوية والذي نقل له "اصططن من الإسكندرية وكان النقل من السريانية والقبطية إلى العربية.

إن عمل خالد بن يزيد تزامن مع عمل آخر في النقل أمر به مروان بن الحكم، ويشير ابن جليل بكتابه "طبقات الأطباء والحكماء"، أن الطبيب البصري الذي عاش في العصر الأموي وتوفى أيام مروان بن الحكم ترجم كتاب "أهرن بن أعين القس" إلى العربية^(٥).

وفي زمن الخليفة عبد الملك بن مروان كان تترجم الدواوين من اليونانية إلى العربية في سوريا ومن الفارسية إلى العربية في العراق وبلاد فارس وذلك على يد الحجاج، ومن القبطية إلى العربية في مصر على يد عامل الخليفة على مصر عبد العزيز بن عبد الملك. استمرت عملية النقل زمن الخلفاء الأمويين وصدر الخلافة العباسية وتذكر كتب التاريخ بأن جبلة بن سالم كاتب الخليفة هشام بن عبد الملك كان ينقل من اللغة الفارسية إلى العربية، كما جرت عملية نقل تواريخ الأمم من الفارسية إلى العربية زمن هشام بن عبد الملك.. وقد زهى العصر الأموي بوجود أشخاص أمثال عبد الحميد الكاتب فقد كان كاتباً لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وعبد الله بن المقفع الفارسي الأصل، وقد نشأ في هذا العصر وهو من تلاميذ الكاتب ونقل إلى العربية كتاب (كليلة ودمنة) وأيضاً من الأطباء الذين ظهرُوا في فترة حكم الأمويين ابن أنال

طبيب معاوية بن أبي سفيان وأبو الحكم، العالم بأنواع العلاج والأدوية وعلاقة بن كريم الكلابي، عالم الأنساب والأخبار وأحاديث العرب القديمة وزيناد بن أبيه. (ونستطيع أن نجمل مميزات العصر الأموي بأنه عصر وضعت فيه جميع البذور الأولى للحضارة الإسلامية والكتاب الإسلامي والمكتبات الإسلامية، فقد دون القرآن الكريم ووزع على الأمصار وبدأت عملية جمع الحديث الشريف وبدأت عملية نقل الكتب من اللغات الأخرى إلى العربية وبدأت الدراسات الفقهية وجمعت الأنساب والأشعار وظهرت المكتبات الخاصة). وتأسست أول مكتبة أكاديمية على يد خالد بن يزيد وقد زودها بكل مستلزماتها بما فيها من مواد فلكية عبارة عن كرة أرضية مصنوعة من النحاس نقش عليها أسمه^(١)

المكتبات في العصر العباسي:

مع امتداد الفتوحات الإسلامية أطلع العرب والمسلمون على حضارات الأمم السابقة ونقلوا وترجموا ما استطاعوا إليه سبيلاً فألفوا وأبدعوا حتى أنتجوا للعالم اجمع حضارة لا يزال العلم الحديث يركز على قواعدها والمبادئ التي سارت عليها. وكان نتيجة ذلك ازدهار حركة التأليف والترجمة وإنشاء المكتبات في مختلف أرجاء العالم الإسلامي لأغراض مختلفة خلال العصر العباسي، واحتوت المكتبات عشرات الآلاف من المجلدات والمخطوطات، وفي هذا الصدد تقول (زيغريد هو نكه): إنه في عام ٨٩١م بلغ عدد دور الكتب في بغداد وحدها أكثر من مائه دار. وعندما وصل العباسيون إلى الحكم وحصل الاختلاط بينهم وبين الفرس واليونان دفعهم ذلك إلى الاطلاع على كل شيء مما كان عندهم من آثار المتقدمين من العلماء والحكماء والفلاسفة.

وكان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور أول من اعتنى بترجمة بعض الكتب العائدة لتلك الحضارات، وقد قام بعملية الترجمة طبيبه جورجيس بن جبرائيل الذي كان يشرف على علاجه، فترجم له كتباً كثيرة إلى العربية، كما ترجم ابن المقفع كاتب

المنصور كتاب كليلة ودمنة إلى العربية وغيرها من الكتب. ويعتبر الخليفة المهدي أول من ورد ذكره في التاريخ من الخلفاء العباسيين انه اعتنى بجمع الكتب هو محمد المهدي (١٥٨ - ١٦٩هـ) والد هارون الرشيد الذي ورث دفاتر علم أوصى له بها أبوه أبو جعفر المنصور (١٣٦- ١٥٨ هـ) عند وفاته وكان شديد الحرص عليها.

ويؤيد عناية المهدي بجمع الكتب ما أثبتته المؤرخ ميخائيل الكبير البطريرك السرياني حين قال: ذكر المؤرخ داوود الشرقي انه عثر في الكتب التي جمعها الخليفة المهدي ونقلها إلى بغداد على الخبر التالي " لما خرج يوحنا فم الذهب إلى المنفى نقش على باب كنيسة أنسطاسيا في القسطنطينية قوله: إني تركت للكنيسة (٨٠٠) مجلد من الشروح والميامر والتراجم والكتابات.

ويعد عصر الرشيد والمأمون العصر الذهبي لعملية النقل من سائر اللغات إلى العربية، فقد أصبح هذا العمل في زمانهما " عملاً رسمياً تتولاه الدولة وتتفق عليه من موازنتها وتحشد له أعظم النقلة والعلماء والمفكرين وتؤسس المؤسسات العلمية وترسل الملوك والحكام من أجل الحصول على الكتب والمخطوطات وترسل البعثات في طلب الكتب العلمية والطبية والفلسفية. وعموماً نقل المسلمون إلى لسانهم معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة والطب والفلك والرياضيات والأدبيات عند سائر الأمم المتمدنة في ذلك العهد فآخذوا من كل أمة أحسن ما عندهم.

لقد بنى الرشيد مؤسسه كبرى للقيام بهذا العمل الجليل كان عملها أول الأمر النقل ثم تطورت زمن المأمون وأصبحت مؤسسة علمية من الطراز الرفيع وأطلق عليها " بيت الحكمة " وأصبحت في فترة خلافة المأمون أكاديمية بالمعنى العلمي تحتوي على أماكن للدرس وأماكن لخرن الكتب والنقل والتأليف. كان للحملات العسكرية التي قام بها الرشيد هدف علمي هو الحصول على المخطوطات والكتب النادرة، وكانت هذه الحملات توجه إلى المدن المشهورة والتي تعتبر معقلاً للثقافة كعمورية وأنقرة وغيرها. وكانت خزائن هذه المدن مليئة بالمخطوطات النادرة والكتب النفيسة ومن

ضمن الشروط التي يتم الصلح عليها بين الرشيد وحكام هذه الدول هو الحصول على الكتب التي يرغب بالحصول عليها. ويأمر بترجمتها، وبذلك كانت حركة الترجمة أقوى منها في عهد المنصور. وقد عهد الرشيد إلى شيخ النقلة وطبيبه الخاص يوحنا ابن ماسويه بعد أن عينه رئيساً لبيت الحكمة وكلفه بترجمة الكتب التي غنمت من أنقرة وعمورية. كما عهد الرشيد للقيام بشؤون خزانة كتب الحكمة إلى شخص يتقن الفارسية هو الفضل بن نوبخت أبو سهل فارسي الأصل وهو من أئمة المتكلمين وقد تولى أمور خزانة الحكمة وكان ينقل كتب الحكمة الفارسية إلى العربية، وكان الرشيد من المتواضعين للعلماء والمغرمين عليهم. (٧)

ومن النقلة الذين خدموا الرشيد والمأمون الحجاج بن يوسف بن مطر، فقد نقل كتاب "أقليدس" "أصول الهندسة" مرتين الأول زمن الرشيد وسمي الهاروني، والثانية زمن المأمون وسمي المأموني.

وإذا انتقلنا إلى عصر المأمون نجده تم ما بدأه جده المنصور وأبوه الرشيد فاقبل على طلب العلم في مواضعه واستخرجه من معادنه بفضل همته وقوة نفسه فداخل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة، وقد سار على سياسة والده في توجيه الغزوات نحو المدن التي تحتوي خزائن المخطوطات للحصول عليها، كما أنه لجأ إلى مراسلة ملوك الروم في القسطنطينية وصقلية وقبرص وغيرها من المدن طالباً تزويده بما لديهم من مخطوطات وكلف أمهر المترجمين ليترجموها فترجمت وحض الناس على قراءتها ورغبهم في ذلك ونفقت سوق العلم في زمانه. وقامت دولة الحكمة في عصره وتنافس أولو النباهة في العلوم كما وجدوا اهتمامه وعطاياه، فكان يجالس العلماء ويأنس بمناظرتهم ويتلذذ بمذاكرتهم، فينالون عطاياه وهذه سيرته مع العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين أهل اللغة والأخبار والمعرفة حتى أصبحت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية أيام اكتمالها وزمان اجتماع

شملها. وكان المأمون يجد لذة في البحث والدرس والمناظرة والجدل العلمي والتأليف والنقل فكان يجمع العلماء ويطلب إليهم أجراء المناظرة بين يديه ويشارك بها بنفسه.

وقد اجتمع لدى المأمون في بيت الحكمة عدد من العلماء والباحثة أمثال سهل بن هارون، وسعيد بن هارون، وسلم والحجاج بن مطر، وابن البطريق، ويوحنا بن ماسويه، وعهد المأمون إلى حنين بن إسحاق بمراقبة النقل من اليونانية إلى العربية. وكانت اكبر مكتبة نقل إلينا خيرها في ذلك العصر هي ((خزانة الحكمة أو بيت الحكمة)) ويشير أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام إلى أن هذه الخزانة أو البيت محاطة بغموض، هل كانت مكتبة فقط أو مكتبة ومعهد ومرصد ؟ وأين كان مكانها ؟ وهل انشأها الرشيد أم المأمون ويخلص احمد أمين إلى أن الرشيد هو الذي وضع نواة هذه المكتبة ثم نمت وتطورت وازدهرت وقويت في عصر المأمون ويشير أحمد أمين إلى أن خزانة الحكمة كانت في عهد الرشيد وكان يعمل فيها علماء مختلفوا الثقافات،فيوحنا بن ماسويه له مقدرة على ترجمة الكتب اليونانية وابن نويخت ينقل من اللغة الفارسية ما يجده من كتب الحكمة الفارسية والراويہ علان الشعبي فارسي الأصل كان يعمل ضمن المجموعة . وكانت خزانة الحكمة في عهد الرشيد مكاناً فيه كتب وله رئيس ديوان وفيه كانت تنسخ الكتب اليونانية والفارسية وتترجم. وكان بيت الحكمة عبارة عن مجلس للترجمة أو النسخ أو الدرس أو التأليف، فيجلس النساخ في أماكن خاصة بهم ينسخون لأنفسهم أو بأجر وكذلك المترجمون والقراء والمؤلفون.^(٨)

ومن بين هؤلاء محمد وأحمد أبناء أو بني موسى ويعرفون بأبناء المنجم لقد تفانوا في طلب العلوم القديمة وبذلوا الأموال الطائلة واحضروا النقلة وأرسلوا حنين بن إسحاق إلى بلاد الروم فجاءهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات وكانوا ينفقون في الشهر (٥٠٠) دينار للنقل والملازمة ولهم مؤلفات عديدة. وكانت بيت الحكمة تحوي فريقاً من المجلدين مهمهم الكتب وحفظها حتى لا تتأثر بكثرة الاستعمال وحمايتها لتعمر فترة طويلة ومن هؤلاء المجلدين يرد أسم ابن أبي الحريش وأيضاً أسم علان الشعبي وقد

كان المشرف على النسخ وهو المسؤول عن تزويد المكتبة بالكتب الجديدة وما يلزم العمل من أوراق ومحابر وغيرها. أما الاسم فأحياناً يستعمل العلماء اسم بيت الحكمة وأحياناً خزانة الكتب، فالخزانة كلمة معروفة وهي أسم الموضع أو المكان الذي يخزن فيه الشيء وقد ورد في القرآن الكريم ((وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم)) سورة الحجر / الآية ٢١، ((ولا أقول لكم عندي خزائن الله)) سورة هود / الآية ٣١. فاستعملوه للدلالة على المكان الذي حفظت فيه الكتب، وقد استعملت كلمة خزانة للدلالة على ذلك، فقد روي أن الجاحظ أراد أن يهدي محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم كتاب سيبويه، فقال له ابن الزيات أو ظننت أن خزاننا خالية من هذا الكتاب.

ويذكر أحمد أمين بكتابه (ضحى الإسلام) بأن بعض المؤرخين قد بالغوا عندما زعموا أن بيت الحكمة كان جامعة كبيرة ملحق بها مكتبة ومرصد ويشير بأن هذه المكتبة كانت ملحقة بقصر الخليفة وقد أعتاد الخلفاء أن يفعلوا هذا في قصورهم، فكان في قصر قرطبة مكتبة وفي قصر الخليفة الفاطمي العزيز بالله مكتبة، كما أن للمأمون مكتبة خاصة به أفرد لها حجرة من حجر القصر وكان يشرف عليها سهل بن هارون بالإضافة إلى إشرافه على بيت الحكمة (٩).

وكان المأمون ينفق الكثير على العاملين في مكتبته وبيت الحكمة وأن رواتبهم كانت أعلى بكثير من رواتب الموظفين الآخرين، كما أن محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان وزيراً للوائح قد بلغ عطاءه للنقطة والنساخ في كل شهر ألفي دينار. هذا وقد استمرت خزانة الكتب في العمل وتأدية رسالتها بعد المأمون ولكنها فقدت كثيرًا من أهميتها مع توالي الزمن وقد كانت لا تزال موجودة في أواسط القرن الرابع الهجري.

لقد اهتم خلفاء بغداد على ضعفهم وقلة مواردهم بالعلم والمدارس والمكتبات كل الاهتمام فهذا الخليفة الناصر لدين الله قد كان محباً للعلم جامعاً للكتب اعتنى بالمكتبات وأسس المكتبة النظامية عندما أعاد عمارتها ونقل لها ألوف الكتب النفيسة وأيضاً أنشأ

الرباط المعروف بالرباط الظاهري غربي بغداد ونقل إليه كتباً كثيرة كما اهتم بتغذية خزائن الخلفاء التي كانت موجودة واشترى لها الكتب ونظمها أحسن تنظيم وقد أوكل مهمة اختيار الكتب إلى شخص يدعى (مبشر بن أحمد بن علي الرازي) واعتمد عليه في اختيار الكتب التي وقفها على الرباط الخاتوني.

وفي عهد الخليفة المستنصر بالله الذي تولى الخلافة بعد الناصر والذي عرف عنه حبه للعلم والعلماء واهتمامه بالكتب والمكتبات حيث أسس المدرسة المستنصرية والتي أصبحت في وقتنا الحاضر الجامعة المستنصرية وقد ارتبط اسمه بهذه المؤسسة. ويذكر أن الخليفة المستنصر بالله آخر الخلفاء العباسيين أنشأ خزانتي للكتب نقل إليهما نفائس الكتب وجعل المسؤول عن الأولى صدر الدين بن التيار، وجعل متولي الثانية عبد المؤمن بن فاخر الأرموي، وكان الخليفة يجلس بعض الوقت في الخزانتي بالتناوب وهاتين الخزانتي أقيمتا في دار الخلافة الخاصة والدليل على ذلك أنه عندما أمر سنة ٦٤١ هـ بعمل خزنة الكتب الأولى في داره حليت جدرانها بأشعار نظمها شعراء الديوان:

سارت بسيرة فضله أخبارها	أنشأ الخليفة للعلوم خزانة
درر الفضائل والعلوم نثارها	تبدو عروساً من غرائب حسنها
بـالله لآلائه أنوارها	أهدى مناقبه لها مستنصر

أما الخزنة الثانية فقد أسسها في أخريات أيامه وكان يمضي شطراً من وقته في الخزانتي.

أما بلاد الشام فإن أشهر أمراء سورية الذين اهتموا بالعلم والأدب وشجعوا عليه هوسيف الدولة الحمداني في القرن الرابع الهجري وكان مقره حلب، فقد أجمع حوله أعظم الأدباء والشعراء والعلماء أمثال المتنبّي وأبو فراس وأبن خالويه والفارابي، وقد أهتم سيف الدولة بالنقل وكان عنده طبيب يدعى عيسى الرقي ينقل من السرياني إلى

العربي وقد أوجد سيف الدولة مكتبة كبرى جعلها في عهده شاعرين أخوين مشهورين هما محمد بن هاشم وأبو عثمان سعيد بن هاشم.

لقد حفل هذا العصر والعصور التي تلتها بمئات العلماء والباحثين الذين عشقوا الكتب وأحبوها حباً ملك عليهم ألبابهم ومشاعرهم وأنساهم ملذات الدنيا حتى الأهل والولد، ومن هؤلاء يرد ذكر الجاحظ والفتح بن خاقان نديم المتوكل والقاضي إسماعيل بن إسحاق. (١٠-١١-١٢)

أنواع المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية وأسباب ظهورها:

تعود أسباب إنشاء وانتشار المكتبات الإسلامية بشكل عام وازدهارها وتطورها في العصر العباسي للأسباب التالية:

- ١) ازدهار حركة التأليف والترجمة .
- ٢) تشجيع الخلفاء والحكام المسلمين للعلم والعلماء
- ٣) انتشار صناعة الورق في بغداد والبلاد الأخرى.
- ٤) ظهور حركة الوراقين وهم أصحاب الحوانيت أو الدكاكين التي كانت تتسخ وتبيع وتؤجر الكتب . (١٣)

ويمكن القول: إن معظم أنواع المكتبات التي نعرفها اليوم قد عرفت الحضارة العربية الإسلامية وخاصة في العصر العباسي، عصر الإبداع والنضج في الحضارة العربية الإسلامية. ونذكر منها:

- ١ - المكتبات الأكاديمية: وهذه المكتبات من أشهر المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية وقد وجه الإسلام جل عنايته إلى طلب العلم وجعل القرآن الكريم الأشخاص غير المتعلمين في عداد الأموات. ومن أشهر المكتبات الأكاديمية، مكتبة بيت الحكمة، ومكتبة مراغة التي أسسها المغول في أذربيجان .

٢- **المكتبات الخاصة:** انتشر هذا النوع من المكتبات في جميع أنحاء العالم الإسلامي بشكل واسع وجيد بحيث يمكن القول بان هذا النوع من المكتبات قد فاق في بعض الأحيان غيره من الأنواع الأخرى. ومن أمثلتها مكتبة سعد بن عبادَة الأَصْصَارِي التي حوت فيها طائفة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. ومكتبة الصاحب بن عبادَة التي بلغت عشرات المجلدات، ومكتبة المستنصر الأموي

٣- **مكتبات الخلفاء:** هي نوع من المكتبات التي انتشرت على امتداد العالم الإسلامي من المشرق إلى المغرب وهذه المكتبات كان ينشئها الخلفاء والأمراء والحكام من أجل أنفسهم، وقد جعلوها حلقات للمناظرة والسمر والمحاضرات والعلوم المختلفة، كما كانت من أجل نشر مذهب يعتنقه الحكام والأمراء. ومن أمثلتها: تلك المكتبة التي أسسها السامانيون في بلاد خراسان، خزانة الكتب في العصر الفاطمي، مكتبة الحكم الثاني.

٤- **المكتبات العامة:** هي مؤسسات ثقافية يحفظ فيها تراث الإنسانية الثقافي وخبراتها ليكون في متناول المواطنين من كافة الطبقات والأجناس والأعمار والمهن والثقافات. ومن أمثلتها: مكتبة بني عمار في طرابلس الشام، وكان لهم وكلاء يجوبون العالم الإسلامي بحثاً عن الروائع لضمها إلى المكتبة، وكان بها خمسة وثمانون ناسخاً يشتغلون بها ليلاً نهاراً.

٥- **المكتبات المدرسية:** أولت الحضارة العربية الإسلامية اهتمامها بإنشاء المدارس من أجل تعليم الناس جميعاً وبها (أي المدارس) ألحقت المكتبات وهو الشيء الطبيعي المكمل لهذا الرقي والازدهار، وتقول النصوص التاريخية إن أول من أسس مدرسة في الإسلام هو نظام الملك وزير السلاجقة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ومن المكتبات أيضاً مكتبة ابن جبيرة، ومكتبة مدرسة

الفاخرية في بغداد. وهناك المدرسة المستنصرية النظامية في بغداد، والتي احتوت على مكتبة ضخمة ضمت ما يزيد على ستة آلاف مجلد، وطورت بعض المدارس كالمدرسة المستنصرية لتكون جامعة تحمل اسم المستنصر فيما بعد وتمتلك المكتبة اللائقة بها.

٦- مكتبات المساجد: إن المكتبات في الإسلام قد نشأت مع نشأة المساجد، حيث يعتبر المسجد من مظاهر الحضارة وعناصرها الإسلامية نظراً لأهميته الكبيرة في الحياة الدينية والسياسية والفكرية، ومن أمثلتها: مكتبة جامع الأزهر، كذلك مكتبة الجامع الكبير في القيروان (٢). وإذا كانت مكتبات المساجد تقوم بوظيفة المكتبات المدرسية والجامعية خلال القرون الأولى من تاريخ الإسلام، فقد زودت المدرسة المستنصرية النظامية في بغداد، في منتصف القرن الخامس الهجري بمكتبة ضخمة كان فهرسها كما يقال يضم ستة آلاف مجلد، واشتهرت بعض هذه المدارس كالمستنصرية لتكون جامعة تحمل اسم المستنصر العباسي فيما بعد. (١٤)

مكتبة بيت الحكمة:

تعدُّ (بيت الحكمة) أعظم المكتبات العربية شأنًا وأقدمها زماناً، وأول من فكر بإنشاء هذا البيت هو أبو جعفر المنصور، فقد خصها ببناء مستقل جمع فيه نفائس الكتب ونوادرها من المؤلفات العربية والمترجمة عن اللغات المختلفة. كان الحاكم المنصور مولعاً بعلوم الحكمة لاسيما الطب والفلك والهندسة، وهو أول من راسل ملك الروم في طلبها فبعث إليه بكتاب إقليدس وبعض كتب الطبيعيات، وكان المنصور شديد الحرص على هذه الكتب ووصى بها لابنه المهدي وكان المهدي قليل العناية بالكتب خاصة بعد انتشار حركة الزنادقة ببغداد التي شغلته فضعفت حركة الترجمة في عهده، وتجنب العلماء ترجمة كتب الحكمة والنجوم والكتب التي تبحث في الملل والنحل والأهواء والمعتقدات (١٥)

وعندما جاء الخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م) والذي يعد المؤسس الحقيقي لبيت الحكمة كان كثير الاهتمام بعلوم الحكمة وترجمة كتبها من اللغات المختلفة فاتسعت دار الترجمة وزاد عدد الموظفين المشتغلين بها وتآلق في عصره نجم عدد من العلماء فأراد مكاناً لتحفظ فيه الكتب التي جمعها فأنشأ بيت الحكمة الذي تطور فيما بعد وأصبحت أشهر أكاديمية علمية عرفت حتى ذلك العصر. بلا أدنى شك كان عصر المأمون أزهى عصور الدولة العباسية.

من الناحية العلمية فلقد اهتم بالمسائل الفلسفية والعلمية وشجع على النهضة الفكرية ونشر العلوم وزود بيت الحكمة بمختلف أنواع الكتب والمخطوطات من الهند وبلاد الروم والفرس وجمع فيها أعظم المفكرين والعلماء والأطباء والنقلة والمترجمين وأغرق عليهم العطاء، وكان واسع الثقافة، حر التفكير، نشأت وتطورت في عهده حركة فكرية عظيمة وغزاها بماله ونفوذه وجهده وعلمه. (١٦)

الأهداف المراد تحقيقها من إنشاء بيت الحكمة:

ازدانت بغداد ببيت الحكمة وأكسبتها مجداً وعزاً، وجذبت إليها العلماء والطلاب، فالتشجيع العلمي وإقبال الأمة على العلم وادّ نشاطاً علمياً واسعاً في مختلف ميادين المعرفة لم يعهد التاريخ قبله — فحقق الازدهار الحضاري العظيم الذي خلد أعمال العلماء المسلمين وأمدّ التراث الإسلامي بذخيرة علمية لا يزال العلم مديناً لها حتى يومنا هذا.

ومن أهم الأهداف التي سعى مؤسسو بيت الحكمة لتحقيقها:

— تنشيط حركة التأليف والترجمة التي امتدت بين عامي ٩٧٠ — ٩٠٠م، خلال هذه الفترة عكف المترجمون على نقل أمهات الكتب اليونانية والفارسية، ومن هنا يتضح لنا كيف حافظت بيت الحكمة على التراث العالمي وأنقذته من الفناء، وأقبل الناس

على الكتب المترجمة فأدى ذلك إلى ولادة حركة فكرية جديدة في التأليف والترجمة والنشر، وأنتجت ثقافة واسعة مبنية على القديم والحديث.

— نشر التعليم والمعرفة بين المسلمين.

— المحافظة على الكتب والمصنفات المؤلفة أو المترجمة، وأقامت لذلك جهازاً تولى الإشراف والمراقبة داخل بيت الحكمة.

— الاستفادة من مزيج الثقافات المختلفة والمعارف المتباينة (١٧)

الأشخاص الذين لقبوا بأصحاب بيت الحكمة:

تتفق المصادر التاريخية على أسماء بعض الذين عملوا في تلك المؤسسة كأمناء أو كانوا يسمون (أصحاب بيت الحكمة) من بين هؤلاء نذكر:

سهل بن هارون، سعد بن هارون (ابن هريم)، أحمد بن محمد، سلم (سلمان الحراني)، الحسن بن مراد الضبي (الصنوبري) وهو آخر هؤلاء حاجب بيت الحكمة وصلتنا معلومات عنه. إلى جانب تلك الأسماء وردت أسماء كخزنة أو مسؤولين عن أقسام المكتبة، عسل يوحنا بن ماسويه، أبو سهل الفضل بن نوبخت، أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي (فلكي المأمون) وأبناء شاعر الثلاثة ... إلخ من الأسماء.

الأول: سلم أو علي الأصح سلمان الملقب بصاحب بيت الحكمة . أصله من حران وكان يعمل في هذه المؤسسة مع سهل بن هارون الثاني : أحمد بن محمد وهو كذلك ممن لُقّب بصاحب بيت الحكمة .

وآخر من كان صاحب بيت الحكمة نعرفه هو الحسن بن مرار المسمى بالصنوبري والشاهد الذي يتعلق بموضوعه يرويه ابن عساكر "ونقله بنصه ابن شاعر الكتبي، وهو هذا: "قال الحلبي الصفري : سألت الصنوبري (والكلام هنا لحفيد شخصنا) عن السبب الذي من أجله نسب جده إلى الصنوبري، حتى صار معروفاً به، فقال لي: كان جدي

صاحب بيت الحكمة من بيوت حكم المأمون، فجرت له بين يديه مناظرة، فاستحسن كلامه وحدة مزاجه، وقال له إنك لصنوبري الشكل، يريد بذلك الذكاء وحدة المزاج.

أقسام بيت الحكمة:

نشأت بيت الحكمة أولاً كمكتبة ثم أصبح مركزاً للترجمة، ثم مركزاً للبحث والتأليف، ثم ما لبث أن أصبح داراً للعلم يتم إعطاء الدروس فيها ومنح الشهادات العلمية، ثم ألحق بها بعد ذلك مرصداً فلكياً. من المؤكد أن بيت الحكمة كانت مقسمة إلى أقسام كبرى بحسب اللغات فهذا قسم الكتب الفارسية وذاك اليونانية وآخر للسريرية وكل قسم يشرف عليه شخص مسؤول عنه ويقسم النشاط عموماً بين حجرات المكتبة وبعضها للنسخ وبعضها الآخر للاطلاع والمراجعة وثالث للدرس والمناقشة وربما استعملت على حجرات للموسيقى. ومن المهم أن نذكر فهارسها المنظمة والمرتبة بحسب موضوعاتها وهناك ملصقات بكل خزانه من خزائن الكتب تحتوي على عناوين الكتب التي تحويها كل خزانه وأرقامها وكانت تشتمل على ملاحظات عن الكتب المفقودة أو لم توجد جميع أجزائها. ويتفق الباحثون بأن المكتبة اشتملت على الأقسام التالية:

المكتبة:

كان قسم المكتبة هو المنوط به اقتناء الكتب من كل حذب وصوب وتنظيمها على الرفوف ومناولتها لمن يطلبها، ويلحق بذلك قسم النسخ والتجليد الذي كان يناط به طباعة الحال استنساخ الكتب وتجليدها وترميم ما يفسد منها، وكانت الكتب الموجودة في المكتبة في قمة ازدهارها حوالي مليوني مجلد. وقد كانت طرق تزويد بيت الحكمة بالكتب كثيرة منها الشراء حيث كان المأمون يرسل بعثات إلى القسطنطينية لإحضار الكتب، وكان في بعض الأحوال يسافر هو بنفسه ويشتري الكتب ويرسلها إلى بيت الحكمة، ومن

طرق التزويد أيضاً الإهداء حيث كان الخلفاء يبعثون بوفود إسلامية إلى الدول الأجنبية فكانت تستهديهم من الكتب الموجودة لديهم، ومنها الغنم والمصادرة، وكذلك التأليف والترجمة، وهكذا تجمعت لهذه المكتبة طرق مختلفة ومتعددة لتصل بكتبها إلى هذا الحد الذي لم تبلغه مكتبة قبلها عدداً ونوعاً. ويتفق الباحثون بأن هذه المواقع العلمية الكبيرة كانت تشتمل على الأقسام التالية:

مركز النقل أو الترجمة:

كان قسم النقل منوطاً به ترجمة الكتب من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية وربما أحياناً من العربية إلى لغات أخرى، وكان يعين في هذا القسم نقلة يختلفون من الناحية العملية والإدارية عن الخزانة الذين يعينون في قسم المكتبة، ومن هؤلاء يوحنا بن ماسويه وجبريل بن بختيشوع وحنين بن إسحاق الذي أرسل في رحلة إلى بلاد الروم ليتمكن من اللغة اليونانية، وكانت الكتب الأجنبية تجلب إلى المكتبة وترجم فيها، كما كان بعض النقلة يترجم خارج المكتبة ويمد المكتبة بترجماته، وكان الحاكم يقدم مكافآت سخية للمترجمين إلى حد وزن المادة المترجمة بوزنها ذهباً. (١٨)

مركز البحث والتأليف:

أهم هذه الطرق التأليف الداخلي والخارجي حيث كان المؤلفون يؤلفون كتباً مخصصة لهذه المكتبة، وكان هؤلاء المؤلفون يقومون بذلك داخل قسم التأليف والبحث في المكتبة أو يقومون بذلك خارج المكتبة ثم يقدمون نتائج تأليفهم إليها، وكان المؤلف يتأب على ذلك بمكافأة سخية من قبل الحاكم.

المرصد الفلكي:

أنشأ المأمون هذا المرصد في حي الشماسية بالقرب من بغداد ليكون تابعاً لبيت الحكمة. وكان يعمل فيه الفلكيون الذين يستعين بهم الحاكم في استطلاع الظروف المواتية للحرب، وعلماء الحيل الذين يعدون آلات هندسية وما إلى ذلك، وكان بيت الحكمة يتردد عليه أفاضل العلماء أمثال محمد بن موسى الخوارزمي أحد فلكي المأمون، ويحيى بن أبي منصور المولى الراصد المشهور، وأبناء موسى ابن شاعر الثلاثة الذين كانوا يتدربون على أعمال التنجيم تحت إشراف يحيى بن منصور، ومن خلال هذا الفريق طلب المأمون التأكد من محيط الأرض بعد أن بلغه أن اليونان قد قدروا محيطه، وقد خرجت بعثة لصحراء سنجار لأداء هذه المهمة. (١٩)

القسم التعليمي:

أما عن المنهج المتبع في الدراسة في بيت الحكمة فكان يتم من خلال نظامين: نظام المحاضرات، ونظام الحوار والمناظرة والمناقشة. وكان المدرس يحاضر في مختلف العلوم في قاعات كبيرة، والأساتذ أو الشيخ هو المرجع الأخير في موضوعه، وكان الطلاب ينتقلون من حلقة إلى أخرى يعالجون في كل منها فرعاً من فروع العلم.

وكان التدريس يشمل من العلوم الفلسفة والفلك والطب والرياضيات واللغات المختلفة كالإيونانية والفارسية والهندية إلى جانب اللغة العربية (٢٠)

نموذج من منهج التدريس في بيت الحكمة:

- مرحلة الإعداد للالتحاق بالدراسة في بيت الحكمة: ١ - من سن ٦ إلى ١٤ سنة : تتم داخل الكتاب في منزل الفقيه (المعلم) أو الحوانيت، ويتم فيها حفظ القرآن الكريم، إجادة الكتابة والقراءة، ودراسة قواعد اللغة.

المرحلة العالية أو مرحلة الدراسة داخل بيت الحكمة: من سن 14 إلى 18 سنة. وتتم داخل مدارس المسجد أو الحلقة ويدرس فيها بعض العلوم الدينية من فقه وتفسير وكلام ورواية حديث ثم معرفة الشعر وسير الأعلام والأخبار مع التفقه في اللغة والأدب والبيان والنقد .

بعد إتمام المرحلتين السابقتين يتم فيها التدريس عن طرق نظامين:

١- نظام المحاضرات

٢- نظام الحوار والمناظرة والمناقشة . يدرس فيها العلوم الفلسفية والطبية والرياضيات والفلك وعلوم الطبيعة والجغرافيا والموسيقى. المدرس يحاضر في بعض العلوم في قاعات كبيرة، والمعيد يساعد المدرس فيجتمع بفئة من الطلاب ويشرح لهم ما استغلّق من المحاضرة ويناقشهم في مادتها والأستاذ أو الشيخ هو المرجع الأخير في موضوعه.

بيت الحكمة نموذج للمدارس الإسلامية:

يعدُّ بيت الحكمة من أعظم المعاهد الثقافية حيث التعليم العالي فيها فكانت بيت الحكمة أول دار للدراسة العالية في الإسلام فهو علاوة على كونه دار ترجمة كان معهداً للعلم، دار كتب عامة، بدأ بيت الحكمة أول ما بدأ بوظيفة مكتبة عامة فأصبح لهذه المكتبة العامة شأن في العالم الإسلامي، ثم تطورت وأصبحت أول جامعة إسلامية اجتمع فيها العلماء والباحثون ولجأ إليها الطلاب وكانت تجرى فيها الأبحاث والدراسات العليا فأصبحت مؤسسة علمية للثقافة العالية، أكثر كتبها في الفلسفة والمنطق والطب والنجوم والرياضيات وغيرها من الكتب العلمية المختلفة، ثم أرتقت دار الحكمة من مجرد دار للترجمة والإنتاج الفكري وكثر المترجمون في هذه الدار في عصر المأمون، وكانوا يقومون بواجبهم العلمي ويتبادلون وجوه الرأي، كذلك كانت هناك أعمال أخرى يقوم بها بيت الحكمة منها : تجليد الكتب التي تتم عملية

تعريبها أو عملية نسخها بأكثر من نسخة لتوزيعها على المكتبات المعروفة آنذاك خارج بغداد أو بيت الحكمة التونسي في رقاده، أو دار الحكمة في القاهرة..

الشهادة التي تمنح للدارسين وللباسهم:

عندما ينهي خريج بيت الحكمة دراسة علم من العلوم يمنحه أستاذه إجازة تشهد بأنه قد أتقن ذلك العلم، فإذا كان من الممتازين نصت الشهادة على أنه قد أجاز له تدريسه، فكان حق منح الشهادة للأستاذ. وكانت طريقة المنح أن يكتب الأستاذ للخريج إجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه الفقهي وتاريخ الإجازة .

وكان لباس الخريجين والعلماء عبارة عن عمامة سوداء وطيلساناً لعله الروب الجامعي اليوم . وكان هذا الزى ضروري للمدرسين والفقهاء تمييزاً لهم عن غيرهم. إذا كان خريج بيت الحكمة قد أنهى دراسة علم من هذه العلوم السالفة الذكر يمنحه أستاذه إجازة تشهد بأنه قد أتقن ذلك العلم، فإذا كان من الممتازين فيه نصت الشهادة على أنه قد أجاز له تدريسه . فحق منح الشهادة كان والحالة هذه للأستاذ لا للمعهد. وكان التدريس يركز على الجوانب الدينية (علوم القرآن الكريم والحديث والفقهاء) والموضوعات الأدبية كدراسة اللغة العربية وغيرها من اللغات بالإضافة إلى العلوم الرياضية وتشمل الجبر والهندسة وعلوم الفلك والمنطق والطب...إلخ.

وهكذا كانت بغداد في علو كعبها في العلم حيث أصبحت القبلة التي توجه إليها رواد العلم من كل حذب وصوب في الدولة الإسلامية التي تحدثت بدورها الركبان وأسمنت شهرتها الأصم وطرقت أسماع القاضي والداني.

التنظيم الإداري والمالي لبيت الحكمة:

كانت المكتبة في عهد المأمون مؤسسة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى انطلاقاً مما يلي:

١- كان الخليفة على تماس مباشر معها وبالتالي كانت تُحلّ الإشكالات بسرعة وفعالية.

- ٢- الميزانية والدعم المالي المفتوح، فكانت هناك رواتب سخية للعاملين فيها.
 - ٣- كانت بيت الحكمة حاضرة في أذهان رجال الدولة في المعارك الحربية حيث يتم الاهتمام بها بجلب الكتب إليها عند عقد المعاهدات.
 - ٤- امتياز بيت الحكمة بوجود هيئات متواصلة ذات بيئة علمية وتطبيقية متميزة في ثلاث مجالات وهي: علم الفلك والترجمة والتدريس .
 - ٥- وجود ختم أو علامة خاصة للمأمون توضع على الكتب، وكان هناك لباس خاص بالعاملين بها وبطلابها.
 - ٦- نوعية العاملين بها من العرب والسرّيان واليهود والمجوس وكانوا يعملون معاً بجو من الحرية التامة في الحديث وإبداء الرأي ولو كان الأمر ضد العرب والمسلمين. أما من حيث التنظيم الإداري للمكتبة نريد التأكيد على أنها لم تكن على الأقل في ذلك الوقت مجرد مكتبة بل كانت أكاديمية تحتذي مكتبة الإسكندرية التي لا شك أنها تأثرت بها. وبالتالي فإن هذه الأكاديمية لا بد وأنها كانت مقسمة إلى عدة أقسام أو إدارات هي:
 - أ- قسم المكتبة
 - ب- قسم البحث والتأليف
 - ت- قسم النسخ والتجليد
- وربما كان قسم المكتبة هو المنوط به اقتناء الكتب من كل حذب وصوب وتنظيمها على الرفوف ومناولتها لمن يطلبها. وقد تعاقب على إدارة بيت الحكمة في بغداد عدد من المديرين العلماء، وكان يطلق على المدير لقب "صاحب" فكان مدير بيت الحكمة يسمى صاحب بيت الحكمة، وأول مدير لبيت الحكمة هو سهل بن هارون الفارسي من أئمة المتكلمين، وقد ولاه هارون الرشيد القيام بخزانة كتب الحكمة، وكان ينقل من الفارسي إلى العربي ما يجده من الحكمة الفارسية، وحين

تولى المأمون الخلافة عينه مديرا لبيت الحكمة، وكان يعاونه في هذا المنصب شخص آخر هو سعيد بن هارون الملقب بابن هريم، وكان ممن تولى إدارة بيت الحكمة أيضا أحمد بن محمد، والحسن بن مرار الضبي. ومن أبرز المشتغلين في عصر الرشيد بدار الحكمة

١- يوحنا بن ماسويه : والذي تدرج فيها حتى تبوأ منصب أمانة الترجمة .

٢- الفضل بن نوبخت: أكبر المترجمين عن الفارسية.

٣- إعلان الوراق (الشعوبي): رئيس الناسخين .

أمين النسخ والترجمة في بيت الحكمة: (علّان الشعوبي) وعمله يتلخص فيما يلي :

١- دراسة المؤلفات المكتسبة من الفتوحات، لاختار من بينها تلك التي يجب أن تسلّم للترجمة.

٢- توزيع المؤلفات على المترجمين لنقلها.

٣- مراقبة عمل المترجمين، وإيجاد الانسجام الضروري فيه.

٤- تقديمه إلى بيت الحكمة لأخذ الموافقة النهائية، وهناك يكتبه الناسخون ويتم إيداعه.

وبخلاصة: فالترجمة التي كان مركزها بيت الحكمة، نظمت حسب مخطط منسق، يشرف عليه أمين الترجمة، وقد وزع العمل بين كبار المترجمين، يساعدهم الكتاب الذين يحتمل أنهم كانوا يهيئون لهم مسودة الترجمة الأولى، كما يُعين منقّق ليصحح الأخطاء اللغوية. (٢١)

رواتب العاملين في بيت الحكمة:

لابد أنهم كانوا ينفقون مبالغ ضخمة وذلك مرتبط بحجم العمل الذي كانت تقوم به تلك المكتبة وبالنسبة للأهداف التي تقع على عاتقها، وكذلك بالنسبة للأشخاص الذين كانوا

يعملون بها ذلك أن أغلبهم علماء من الطراز الأول ونعتقد أن رواتبهم كانت عالية جداً ويذكر أحد الوزراء أيام الواثق: فقد كان يقارب عطاؤه للنقله والنساخ ٢٠٠٠ دينار كل شهر وقد ذكرنا أن عطاء المأمون لحسين بن إسحاق لوحده وزن ما كان يترجمه، فإذا كان الأمر كذلك فكم يجب أن تكون رواتب جميع موظفي ومستخدمي بيت الحكمة ونعتقد أن الجواب هو ليس أقل من عشرين ألف دينار في الشهر أو ربما أكثر من ذلك. (٢٢)

نهاية المكتبات في العصر العباسي:

بعد أن بلغت مكتبات العصر العباسي ذروة ازدهارها وتكونها وبعد أن لعبت دوراً عظيماً في تطور العلوم عند العرب في العصور الوسطى، أخذت هذه المكتبات بالانحطاط وانحسار دورها تدريجياً حتى غابت عن الوجود نهائياً عندما وجه إليها المغول والصليبيون والضربات القاضية وخلاصة القول: إن هذه المكتبات انتهت واندثرت بتأثير عاملين: داخلي وخارجي:

١- الداخلي: في أواخر الدولة العباسية بدأت تضعف الدولة جراء تفكك المجتمع الإسلامي والانقياد وراء المشاكل والثورات والحرائق التي أودت بحياة الكثير من المكتبات وساهم في ذلك أيضاً ظهور قوى جاهلة ومتعصبة كانت ترى في الكتب وخاصة المترجمة منها من اللغات الأجنبية خطراً يهدد كيان الأمة وحضارتها فمثلاً أصر السلطان محمود الغزنوي باستخراج كتب علوم الأوائل من مكتبة الصاحب ابن عباد وأمر بإحراقها. وفي إسبانيا أحرقت كتب الفلسفة ولوحق الفلاسفة من قبل المنصور بن أبي عامر، بالإضافة إلى جهل بعض الحكام وقد لعبت الظروف الاقتصادية التي مرت بها ديار المسلمين دوراً في ذلك.

٢- الخارجي: المتمثل بالغزو المغولي والحملات الصليبية التي قضت على كل أمل في متابعة العرب المسلمين مسيرتهم العلمية خدمة للحضارة الإنسانية وصرفت طاقة العرب وتفكيرهم عن الاهتمام بالعلم وتحولهم نحو مقاومة تلك الغزوات.

تعرض العالم الإسلامي خلال القرون ١٢ - ١٥ لهجمات منظمة من الغرب إلى الشرق بقصد تخريبه واجتياح أراضيه فقد بدأ المغول هجومهم منذ أوائل القرن الثاني عشر وكان الموت والدمار يحل بكل مكان تطوّه أقدامهم، فيذكر المؤرخون حوادث مذهلة عن عبث هولاءكو بتراث العرب فقد بني بكتب العلماء اصطبلات الخيول ومعالفها، وقيل أن مياه دجله تغير لونه لكثرة ما ألقى فيه من كتب وأوراق. (٢٣)

تتفق الكثير من الدراسات على أن مكتبة بيت الحكمة استمرت موجودة طوال العهد العباسي إلى أن دخل التتار بغداد سنة ١٢٥٨م وقتلوا المستعصم آخر خلفاء بني العباس فذهبت خزانة الكتب وذهبت معالمها وعفت آثارها.

ومن ناحية الغرب تعرض العرب للحملات الأوروبية الصليبية قرابة قرنين من الزمن وإبان تلك الحملات طمست معالم أكبر مكتبة عامة قامت في حضارة الإسلام وهي مكتبة بني عمار في طرابلس الشام وفي الأندلس لقيت المكتبات نفس المصير بعد أن تمكن الأسبان من إحراق الكتب والمكتبات فمثلاً أمر رئيس أساقفة غرناطة والكاردينال كسينمس بإحراق الكتب العربية، وبذهاب ذلك التراث طويت مرحلة من مراحل تطور الإنسان على الأرض ومن المهم ذكره هنا هو أن عدداً كبيراً من أمهات الكتب العربية وفي مختلف العلوم قد تسرب إلى أوروبا وأثرت في نهضتها وهذا باعتراف المنصفين منهم الذين يعترفون بأن نهضتهم مدينة لمؤلفات العرب في كافة حقول المعرفة. (٢٤-٢٥).

إن قصة المكتبات العربية الإسلامية في نشأتها وتطورها وانحطاطها هي في ذات الوقت قصة الحضارة العربية الإسلامية في نشأتها وتطورها وانحطاطها وهي تمثل ما كان عليه العرب من إبداع في تلك العصور.

الهوامش

(١) القرآن الكريم

(٢) عبد الحافظ محمد سلام: خدمات المعلومات وتنمية المكتبات المقتنية. — عمان:

دار الفكر، ١٩٩٧، ص ٢٨٢

(٣) عبد الله إسماعيل الصوفي: المكتبات وخدماتها. — عمان: جمعية عمال المطابع

التعاونية، ١٩٩١، ص ٦٥-٦٧

(٤) ربحي مصطفى عليان: المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية. — عمان: دار

صفاء، ١٩٩٩، ص ٢٢٣-٢٢٤

(٥) محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرهما. — ط ٣.

— بيروت مؤسسة الرسالة، ١٩٨١، ص ٥-٩

(٦) فؤاد سيد: طبقات الأطباء والحكام لابن جلجل، القاهرة: منشورات المعهد

الفرنسي، ١٩٥٥، ص ١٥

(٧) محمد ماهر حمادة، مرجع السابق، ص ٥، ٩، ٢٤-٢٥

(٨) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء. — ط ١. — القاهرة: المطبعة

الوهابية، [د.ت.]، ص ١٤٣

(٩) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ط ٢، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، ١٩٣٤، ج ٢،

ص ٦٣

(١٠) أحمد أمين، مرجع السابق، ص ٦٣-٦٥

(١١) شعبان عبد العزيز خليفة: الكتب والمكتبات في العصور الوسطى - القاهرة:

الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧، ص ٢٨١-٢٩٣

- (١٢) محمد ماهر حمادة، مرجع السابق، ص ٥٦-٥٧
- (١٣) خضر أحمد عطا الله: بيت الحكمة في عصر العباسيين. - القاهرة: شركة دار الإشعاع للطباعة، ١٩٨٩، ص ٢٨-٧١
- (١٤) عبد اللطيف الصوفي: لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات. - دار طلاس، ١٩٨٧، ص ٦٧
- (١٥) محمد ماهر حمادة، مرجع السابق، ص ١٤٥
- (١٦) كور كيس عواد: خزان الكتب القديمة في العراق. - ط ٢. - بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٨٦، ص ١٠٥
- (١٧) خضر أحمد عطا الله، مرجع السابق، ص ٢٨
- (١٨) أحمد بدر: المدخل إلى علم المكتبات والمعلومات، الرياض ١٩٨٥، الناشر دار المريخ للنشر، ص ٢٩-٣٠
- (١٩) محمد مطيع الحافظ: تاريخ العلوم عند العرب، دمشق: جامعة دمشق، ١٩٨٩، ص ٢٩-٣٠
- (٢٠) فيليب حتي: تاريخ العرب. - ط ٥. - بيروت: دار غنده، ١٩٧٤، ص ٣٣٧
- (٢١) سعيد أحمد حسن: أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي. - عمان: دار الفرقان للنشر والتوزيع، ١٩٨٤، ص ٢٨-٣٠
- (٢٢) شعبان عبد العزيز خليفة، مرجع السابق، ص ٢٨١-٢٩٣
- (٢٣) خضر أحمد عطا الله، مرجع السابق، ص ٧٠-٧١
- (٢٤) هایل نوفل: تاريخ الكتب والمكتبات. - دمشق: دن، ١٩٨٧، ص ٢٠١-٢٠٤
- (٢٥) كوركيس عواد، مرجع السابق، ص ٣١.